

المحور الأول: الدراسات الثقافية (مدخل عام)

1. نشأة الدراسات الثقافية

تعرف الدراسات الثقافية باعتبارها مجالاً أكاديمياً متعدد التخصصات، يجمع بين الاقتصاد السياسي، الدراسات الأدبية، الأنثروبولوجيا الثقافية، الفلسفة، دراسات الجندر، الدراسات السينمائية ودراسات الاتصال.

تمتد الجذور التاريخية للدراسات الثقافية إلى أعمال ريموند ويليامز **R. Williams** وريتشارد هوجارت **R. Hoggart** أواخر الخمسينات وبداية الستينات من ق 20، والتي أتت في سياق السجلات التي عرفت بريطانيا حول الثقافة والمجتمع.

تجسد هذا المجال بشكل رسمي مع انشاء مركز بيرمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة ببريطانيا على يد هوجارت سنة 1964م، اذ يعتبر أول من أطلق تسمية "الدراسات الثقافية" وأصبح كتابه « **The Uses of Literacy** » الذي ألفه سنة 1957م نقطة تجمع للمجال الجديد.

وقد اعتمدت هذه الدراسات عموماً على المنظور الماركسي والبنوي لدراسة العلاقات المعقدة بين الاقتصاد، السياسة والثقافة. وسعى أصحابها إلى وضع المنتجات الثقافية في علاقة مع غيرها من الممارسات الاجتماعية، خاصة النظم السياسية وأنساق التدرج الاجتماعية كالعرق والطبقة والنوع الاجتماعي. مما يعني تحول دراسة المنتجات الثقافية من التركيز على المنتجات التي تنتقيها وتحثي بها الصفوة من المفكرين أو الفنانين إلى دراسة المنتجات الثقافية المادية والرمزية المتواجدة لدى كافة شرائح وقطاعات المجتمع. حيث اهتمت بشكل خاص بما هو يومي "شعبي" بدلاً من التركيز على ما يعرف بالثقافة الرفيعة. وبذلك تكون الدراسات الثقافية قد أسست لطرح جديد ما بعد حداثي في التعامل مع الثقافات والخطابات الفنية والأدبية. وإعادة تصور طبيعة الثقافة ودورها في المجتمع.

في الوقت المعاصر تفرعت الدراسات الثقافية إلى اتجاهات فكرية متعددة لا تشترك في وحدة نظرية أو منهجية، مع بقاء التركيز على الثقافة اليومية والشعبية عنصراً مهماً فيها.

لذا إذا أردنا تعريف الدراسات الثقافية فيمكن القول بأنها تشير إلى الدراسة العلمية للثقافة أو التحليل النقدي للثقافة كممارسة يومية في علاقاتها بين مختلف البنيات الثقافية والفكرية والأنساق المعرفية السائدة، وفي تأثيرها وتأثرها بمختلف هياكل ومؤسسات الهيمنة السلطوية الموجودة.

وهي ليست نظرية وإنما هي مزيج من النظريات والمقاربات والاسئلة التي توظف لقراءة أنماط القوى الاجتماعية والثقافية وارتباطها بالهويات والجماعات.

عوامل نشأة الدراسات الثقافية:

*التغيرات الاجتماعية والثقافية في بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية:

- ✓ نشأ المركز كنوع من المساندة للحركات الثورية والمقاومة للرأسمالية الاستهلاكية التي أدت الى انتشار ثقافة الاستهلاك مع ازدياد رفاهية المجتمع البريطاني.
- ✓ نمو الطبقة العاملة وبروز جماعات اجتماعية جديدة ممثلة في الطبقة المتوسطة.
- ✓ توسع فرص التعليم في بريطانيا ما أدى الى بروز نخبة مثقفة لا تملك بالضرورة نفس الثقافة ولا تتبنى نفس وجهات النظر والقيم التي كانت سائدة لدى الطبقتين الوسطى والعليا اللتين شكلنا جزءا كبيرا من النخبة الفكرية التقليدية والتي كانت تفضل الفنون الرفيعة وتنتقد الاشكال الشعبية. وهو ما جعل المثقفين المنتمين الى طبقة العمال من أمثال ويليامز وهوجارت يؤكدون على أهمية الثقافة الشعبية.
- ✓ فقدان الهوية المتجانسة داخل المجتمع البريطاني نتيجة لتدفق موجات الهجرة.
- ✓ تغيرات القيم الاجتماعية.
- ✓ التمدن والبعد الميكانيكي الذي أخذه المجتمع.
- ✓ انتقال النقاش من التركيز على العلاقة (الثقافة - الأمة) الى مفهوم (الثقافة - ثقافة الجماعات الاجتماعية المختلفة).

*ظهور تيارات فكرية جديدة: كالماركسية والبنوية التي ساعدت في فهم كيفية انتاج المعنى من خلال النصوص والمنتجات الثقافية، وانتشار أفكار ما بعد الحداثة التي رفضت الأفكار التقليدية حول الحقيقة والمعرفة.

*تأثير الثقافة الأمريكية.

*تأثير الحرب الباردة والحركات الاجتماعية مثل حركة الحقوق المدنية، وحركة تحرير المرأة.

*تأثير التكنولوجيا المتمثل في ظهور وتطور وانتشار وسائل الاعلام كالتلفزيون والسينما.

*ظهور مراكز للبحوث والدراسات الثقافية وانتشار هذا النوع من الأبحاث.

2. أهم مفاهيم الدراسات الثقافية:

*الثقافة:

ينحدر مصطلح الثقافة في اللغة العربية من الجذر ثَقَفَ وتعني سرعة التعلم والحذق والمهارة. أما في اللغة اللاتينية فهو يرتبط بكلمة Cultura التي تعني العناية الموكلة للحقل والماشية وقسمة الأرض المحروثة أي لها علاقة بعالم الزراعة.

ثم تطور المفهوم ليتحول معناه الى الإشارة الى التربية الفكرية وإنتاج الأفكار. وارتبط بكل الأنشطة التي تساعم في رفع مستوى الفرد العلمي والفكري.

*ويهد تعريف البريطاني ادوارد تايلور للثقافة من التعاريف التي تلقى قبولا واسعا في الأوساط العلمية، ويهد مرجعيا لأغلب الدراسات، اذ يعرفها بأنها: "ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الانسان بوصفه عضوا في المجتمع".

*أما بالنسبة للدراسات الثقافية فهي تتبنى المفهوم الانثروبولوجي للثقافة، وهي بذلك تتصدى لفكرة الطبقة الثقافية، وترفض ان يتم حصر مفهوم الثقافة في مجال "الثقافة الرفيعة"، فأى حديث عن ثقافة رفيعة في مقابل ثقافة وضيفة لا يصح من ناحية المعرفة.

وتعرف الدراسات الثقافية الثقافية بأنها: "في آن طريقة حياة ومجموعة من النصوص ووسيلة تقسيم اجتماعي" وعليه فقد اهتمت بالثقافة كممارسة تمثيلية دالة داخل سياقات اجتماعية ومادية مرتبطة بالإنتاج والتداول.

ويذهب ويليامز الى أن الثقافة أسلوب حياة وهي: "عملية عامة من التطور العقلي والروحي والجمالي".

أما كريس باركر فيشير الى الثقافة باعتبارها طريقة حياة في كل مكوناتها: اللغة، التمثلات، الممارسات، الأدوات والمصوغات، تنظيم الفضاء، السلطة، سواء كانت عليا أو دنيا، جماهيرية أو نخوية فهي في النهاية ثقافة طالما انتجها الانسان العادي.

وبذلك تنطلق الدراسات الثقافية في فهمها للثقافة بوصفها عملية انتاج نمط الحياة المتبع داخل الجماعة بعيدا عن هوية المنتج لها، فالأهم هو اقتفاء أثر نمط الحياة ضمن ممارسات الأفراد في

حياتهم اليومية والغايات منه. ولا يتم التساؤل حول مُنتج هذا النمط الا عندما يتم الاستعانة بالأطروحات الماركسية حول السلطة.

فالثقافة تعتبر حقلا تتجسد فيه حقيقة التنوع من جهة، وحقيقة السلطة والتدافع والصراع من جهة ثانية. والثقافة متحولة ومتجددة بشكل دائم لذا نجدها ترتبط بمفاهيم كالهيمنة، السلطة، الصراع، الأقليات، الثقافات الفرعية، الجندر، العرق، الاثنيات... وغيرها.

***الثقافة المادية:** هي كل الأشياء المادية التي يصنعها الانسان كالسكن، الأثاث، الأدوات... وغيرها من مظاهر الحياة وكل ما يتصل بالإنتاج والتكنولوجيا والاختراعات التي توجد مثل هذه الأشياء.

***الثقافة غير المادية:** وهي كافة السمات غير الملموسة كالمهارات والخبرات والمعايير والمعرفة والمعتقدات والاتجاهات واللغة... الخ والتي تنتقل من جيل الى آخر.

***الثقافة الشعبية:** هي مجموع العناصر التي تشكل ثقافة المجتمع المسيطرة في أي بلد أو منطقة جغرافية محدودة، غالبا باستخدام طرق اعلام شعبية. تنتج هذه الثقافة من التفاعلات اليومية بين عناصر المجتمع.

وهي الثقافة الشفوية التي ينقلها المجتمع من جيل الى اخر كالشعر الملحون، الحكايات، العادات والتقاليد، الفلكلور... الخ.

وتشير الى نمط الابداعات والممارسات وأشكال التفاهم التي تساعد على تثبيت دعائم الهوية المميزة لجماعة معينة.

***الثقافة العليا:** أو ثقافة النخبة، تنتج من قبل صفوة خاصة يتوفرون على الإنتاج الثقافي الذي تتبناه الشرائح الاجتماعية المهيمنة، وتقدمه على أنه الثقافة القياسية الحقة. (هذا التوجه يقصي الاشكال التي ينتجها عامة الناس بحجة عدم امتلاكهم لوسائل انتاج الثقافة)

في هذا الإطار تدافع مدرسة فرانكفورت عن الثقافة العليا في مواجهة المد الرأسمالي وانتشار الثقافة الجماهيرية. بينما يتبنى مركز بيرمنغهام نظرة غير اقصائية بحيث يؤمن بالتعدد والتنوع الثقافي ويدافع عن الثقافات المتعددة ضد الهيمنة الثقافية.

***الثقافة الجماهيرية:** غالبا ما يتم ربطها بالإنتاج الصناعي فهي خاضعة للوسائل الصناعية في الإنتاج والتوزيع.

هي ثقافة مرتبطة بوسائل الاعلام وتنقل بواسطتها وتؤثر في المجتمع بالترار وطول الزمن. تعرف أيضا بأنها تلك المحتويات التي تبثها وسائل الاعلام في المجتمع التقني المعاصر. ويشترط في وجود الثقافة الجماهيرية وجود المجتمع الجماهيري وليد التطور التكنولوجي. تتميز الثقافة الجماهيرية بالتمطية أو المعيارية (أي انها عامة وتزح الخصوصيات الثقافية المحلية)، ترسخ قيم الامتثالية (تعمل على تثبيت الأنماط الاجتماعية والثقافية السائدة)، تنمي النزعة الاستهلاكية.

***الصناعة الثقافية:** صاغ هذا المفهوم كل من هوركهايمر وأدورنو من مدرسة فرانكفورت للإشارة الى عمليات انتاج الثقافة الجماهيرية.

وتعني جملة النشاطات المخططة والمنظمة التي تديرها مقاولات أو شركات أو تجمعات أو تكتلات لإنجاز مشاريع صناعية، تستهدف انتاج وتوزيع مواد وخدمات ذات طابع ثقافي. تحولها الى بضاعة ذات قيمة تبادلية وفقا لقواعد انتاج السلع المادية وغير المادية في التنمية البشرية الشاملة للمجتمعات.

والصناعة الثقافية تقوم بتحويل القيمة الاستعمالية (أي المنفعة التي تحققها السلعة) الى شيء يقوم النظام الرأسمالي بإنتاجه.

***الهيمنة والايديولوجيا:**

تعني الهيمنة في الخطاب النقدي المعاصر القوة التي تمارس من خلال ترسيخ اعتقاد لدى غالبية الناس في مجتمع ما بأن القوة امتياز لفئة أو طبقة، كحق طبيعي أو مبرر. تعود أصول هذا الاستخدام المعاصر الى النظرية الماركسية. وقد طور انطونيو غرامشي هذا المصطلح في ق20. وعرف الهيمنة بأنها: "قيادة سياسية قائمة على القبول بالحكم السائد، ويضمن هذا القبول من خلال نشر أفكار الطبقة الحاكمة وتعميمها في الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية، وحتى في أعتى ظروف الاستغلال".

لذلك دعا غرامشي على ضرورة تنمية الوعي السياسي للبروليتارية لتمكينها من الظهور كقوة مهيمنة قائمة بذاتها. بالنسبة لغرامشي كان لا بد من اقناع البروليتاريا بأن لها حقا في الحكم، ولتحقيق ذلك

كان لابد من فضح الاعتقاد السائد بحق الطبقة الحاكمة في الحكم. وكان لابد من احترام الاشكال الثقافية والأيدولوجيات البروليتارية ودمجها في استراتيجية الثورة.

واتباعًا للتقليد الماركسي عمومًا، يتمثل السؤال المحوري في: كيف تسهم وسائل الإعلام الجماهيرية في دعم أيديولوجيا الطبقة المهيمنة وتعزيزها؟

ويرتبط بهذا السؤال مفهوم الخطاب، أي شبكة المعاني الثقافية التي تتكاثف حول موضوع أو فكرة معينة، وكيف يتم تقديم بعض الخطابات بحيث تبدو وكأنها الوحيدة الممكنة.

تأثر باحثو الدراسات الثقافية في بداياتهم بتنظيرات Louis Althusser ، الذي قدّم منظورًا حتميًا لوظائف الأيديولوجيا الخطابية والمادية. فوفقًا له، تُنتج الأيديولوجيا الثقافة، ولا يملك الأفراد سوى قدر محدود من الفاعلية لمقاومتها أو تحدّيها.

غير أن باحثي الدراسات الثقافية خففوا من حتمية هذا التصور بالاستناد إلى مفهوم الهيمنة لدى Antonio Gramsci فبدلاً من تصوير الأيديولوجيا كقوة شاملة مطلقة، يرى غرامشي أن الأيديولوجيات المهيمنة وأشكال السيطرة نادرًا ما تُفرض بالقوة أو الإكراه المباشر، بل إن الناس يوافقون، بدرجات مختلفة، على خضوعهم. ويتحقق هذا القبول عندما تعترف الجماعة المهيمنة — ولو جزئيًا — بالمواقف ووجهات النظر المعارضة، بحيث يشعر المهتمّون أن مصالحهم تؤخذ في الاعتبار. ورغم أن التغييرات الجوهرية قد لا تحدث فعليًا، فإن التنازلات التي تقدمها الجماعة المهيمنة تكون كافية لإبقاء الفئات المهمشة في حالة من الرضا النسبي.

ومن ثم، تفتح الهيمنة المجال أمام إمكانية إحداث تغيير اجتماعي، لأن الأفراد يشاركون — بصورة أو بأخرى — في إعادة إنتاج شروط خضوعهم.

ولهذا يدرس باحثو الدراسات الثقافية كيفية عمل الأيديولوجيا والهيمنة، وكذلك لحظات التصدّع في الخطابات المهيمنة التي تتيح إمكانات الفاعلية والمقاومة وربما التحوّل الثوري.

** الاستخدام المعاصر لمصطلح الهيمنة يشير الى ان النصوص الاجتماعية والادب والأفلام والتلفزيون والانترنت قد تكون حاسمة في تمكين الطبقة الحاكمة من ممارسة السلطة. وبالتالي استخدام مصطلح الهيمنة يسهم في وضع انتاج الثقافة في صميم مسألة السلطة والتغيير الاجتماعي.

وقد تكون هذه النصوص وسيلة حاسمة لمقاومة السلطة من قبل الطبقة الثورية ولذلك تصبح النصوص الثقافية والاجتماعية بحد ذاتها ساحة للصراع بالغ الأهمية في تحديد من يتحكم في العمليات الاجتماعية ومن يمارس السلطة بنجاح.